المحاضرة الخامسة: **نعت الصحراء**

الشاعر الجاهلي والطبيعة الصحراوية:

كانت الصلة بين الشاعر الجاهلي والطبيعة وثيقة، فقد كانت مصدر إلهامه، كما كانت مصدر حياته وسعادته وشقائه فهي بمثابة الأم التي تعطف على ابنها وتقسو عليه؛ تعطف عليه فتمنحه كل ما تستطيع، وتقسو عليه فتسلبه كل ما منحته، وقد وصف العربي كل شيء في الطبيعة بنوعيها الجامدة و المتحركة.

أ ــ الشاعر والطبيعة الصحراوية الصامتة:

اختلفت نظرة الشاعر للكون وفقا لاختلاف طبيعة عناصره، ذلك أن نظرته للجوامد سواء الثابتة كالجبال، التلال، والصحاري والوديان.... أو المتحركة كالنجوم والكواكب تختلف عن نظرته للكائنات الحية التي ترمز للفناء والموت عكس الجوامد التي ترمز للخلود والاستمرار، فقد اهتم الشعراء بالصحراء أيما اهتمام، وذلك لأهميتها في حياتهم حيث استلهموا من مناظرها كالليل والرمال ، والنجوم أشعارا تحمل في طياتها ألواحا فنية، يعبرون من خلالها عن فرحهم وترفهم، وخوفهم؛ فقد كانت الصحراء أمامهم "تفيض بكائنات روحية، لا أول لها ولا آخر، وكان يرى في صورها هذه القوى الخفية، مما دفعه إلى أن يقيم بين الأشياء علاقات التشبيه، فإذا هو يرى في بعض الأشياء صورة أشياء أخرى فيستعيرها لها".

حين يشبه الشاعرشيئا ماديا بشيء محسوس يرى أن هناك قوى خفية تعبر عن الرغبة في الهيمنة والخلود، ذلك " أن مواجهة الشاعر للعالم قد قادته إلى محاولة امتلاك هذا العالم رمزا بعد أن شعرأنه يستوعب هذا العالم بفكره وروحه، فالجبال والشمس

والقمر والنهر والبحور والنجوم ترمز للقوة و الخلود و امتلاكها يكشف عن نزوع نحو امتلاك هذا الخلود الذي ترمز إليه"، معنى هذا أن الشاعر حين أحس بأنه يستوعب هذا العالم بفكره وروحه، حاول أن يمتلك كل ما يرمز للقوة والخلود في الطبيعة.

يقول النابغة في تشبيه الملوك بالكواكب التي تختفي عند بزوغ الشمس:

فإنـــكَّ سْـــمَشُ والملـــوك كواكـــب إذاَ طَلَعـــت لـــم يبـــد مـــنهنّ كوكـــبُ

ويشبه المرأة بالشمس فيقول:

بيضاء كالشـــمس وافـــتْ يـــوم أســـعدِها لم تُؤذِ أهلا ولـــم تُفْحِـــش علـــى جـــار

ومن مظاهر الطبيعة الصامتة في الشعر الجاهلي نجد الليل والبرق والبحر والجبال والرمال...

يقول امرؤ القيس في وصف الليل:

ولَيْـــلٍ كَمَـــوْجِ البَحْـــرِ أَرْخَـــى سُـــدُوله عَلَـــــي بِـــــأَنْوَاعِ الهُمُـــــوْمِ لِيَبْتَلِـــــي

أَلاَ أَيهَـــا الليْـــلُ الطوِيْـــلُ أَلاَ انْجَـــلِ بِصُـــبْحٍ وَمَـــا الإِصْـــبَاحُ منِـــكَ بِأَمْثَـــلِ

فَيَـــا لَـــكَ مَـــنْ لَيْـــلٍ كَـــأَن نُجُومَـــهُ بكـــل مُغـــار الفَتـــل شُـــدَّت بِيـــذبُل

وصف الليل وظلمته الحالكة فهو" ليل معتم حالك السواد كبحر متلاطم الأمواج ظلمة فوق ظلمة، وذلك من جراء الأحزان والهموم المتراكمة بعضها فوق بعض ... ولمّا تطاول وازداد طولا وثقلا على قلبي وأحاسيسي قلت له ألا انكشف وتبدد من الوجود كأن نجومه قد ربطن بجبل يذيل بنجد.

ويقول في وصف البرق:

أَصَـــاحِ تَـــرَى بَرْقـــاً أُرِيْـــكَ وَمِيْضَـــه كلَمْـــعِ اليَـــدَيْنِ فِـــي حَبِـــي مُكَلَـــلِ

يُضِـــيءُ سَـــنَاهُ أَوْ مَصَـــابِيْحُ راهِـــبٍ أَمَـــالَ الســـلِيْطَ بِالـــذُّبَالِ المُفَتَّـــلِ

شبه وميض البرق بمصباح راهب صَبَّ عليه مزيدا من الزيت.

ب الشاعر والطبيعة الحية:

عرفت البيئة الصحراوية العربية أنواعا كثيرة من الحيوانات، وظفها الشعراء ووصفوها وتأملوا صراعها مع من حولها من أجل الحفاظ على نفسها في ظل قسوة الصحراء، وقد عبروا عن أفكارهم ومشاعرهم من خلال حياتها.

اهتم الشاعر الجاهلي بالكائنات الحية فقد كانت صلته بالحيوانات قوية حيث اعتمد عليها في حياته، فقد كانت بمثابة الصديق الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ومن الحيوانات التي كانت أحب إلى الشاعر وأقربها" **الإبل والخيل** "فقد كانت مركبه في التعب ورفيقه في السفر وأنسه في الوحدة ولعل هذه الصلة هي التي جعلت الشاعر العربي يصفها ويوظفها في أشعاره حيث نجد طرفة بن العبد يصف ناقته فيقول:

جمَاليـــــةٌ وجنـــــاء تَـــــردي كأنهَـــــا سَـــــفنجة تُبـــــري لأزْعـــــرَ أَرْبـــــد

وصف ناقته بالجمل في قوتها فقال جمالية وجناء تردي أي تضرب الأرض كأنها سفنجة أي(نعامة) في سرعة جريها.

وجمجمـــــةٌ مثـــــلُ العَـــــلاة كأنمـــــا وعى الملتقى منهـــا إلـــى حـــرف مبـــرَد

ووَجْـــهٌ كقرطـــاس الشـــآمي ومشْـــفَرٌ كسَـــبْتِ اليمـــاني قـــده لـــم يجـــرد

شبه طرفة بن العبد ناقته بأنها عظيمة الرأس لها عنق طويل وجمجمة صلبة كالسندات وهي السِّندان"وهذه الجمجمة كأنها قطعة واحدة في التئامها "وقد شبه وجهها بصحيفة القرطاس البيضاء وذلك لنقائه وقصر شعره.

ويمكن القول إن **الناقة** كانت وسيلة الشاعر في اجتياز الصحراء ومواجهة قهر الزمان

والمكان، أما الخيل فكانت وسيلة للسفر وأداة للصيد والحرب وقد وظفها في أشعاره وفي ذلك قول امرئ القيس:

وقـــد أغتـــدي والطيـــر فـــي وُكُناتهـــا بمنجـــــرد قيـــــد الأوابـــــد هيكـــــل

لـــــه أيطـــــلا ظبـــــي وســـــاقا نعامـــــة وإرخـــــاء ســـــرحان وتقريـــــب تتفـــــل

مكـــــرّ مفـــــرّ مقبـــــل مـــــدبر معـــــاً كجلمود صخرٍ حطّـــه السـيل مـــن عَـــلِ

يـــزِلُّ الغـــلام الخِـــفُّ عـــن صـــهواته ويُلـــــوي بـــــأثواب العنيـــــف المُثَقَّـــــل

يصف امرؤ القيس **جواده** بأنه سريع الحركة، ذو ظهر ناعم أملس أجرد، له خاصرتا غزال ضمورا وساقاه طويلتان كأنهما ساقا نعامة، يتمدد في جريه كالذئب ويقرب بين أطرافه كالثعلب، له سرعة فائقة تجمع بين الهجوم والتراجع، يسقط على فريسته سقوط الصخر العظيم من أعلى الجبل، ويسقط الغلام الخفيف عن ظهره، وأما الثقيل الشديد فتخنقه ثيابه لايلفافها على جسمه لسرعته.

يمكن القول أن الله منح الجاهلي الناقة والفرس وذلك لكسر قسوة المحيط وتحقيق ذاته أمامه.

تحدث الشعراء كذلك في أشعارهم عن **الكثبان الرملية** التي كانت منتشرة في كل مكان مشكلة بذلك جبالا رملية جميلة، فها هو امرؤ القيس يصف الرمال حوله، فقال:

قفا نبك مـــن ذِكـــرى حبيـــب ومنـــزل بسِقطِ اللـــوى بـــينَ الـــدَّخول فحَوْمـــلِ

وفي ما يخص **الوديان** فقد كان لها وجود أيضا في الشعر الجاهلي كقول زهير:

ظَهَـــرْنَ مِـــنْ الســـوْبَانِ ثُـــم جَزَعْنَـــه عَلَـــى كُـــل قَيْنِـــي قَشِـــيْبٍ وَمُفْـــأَمِ

بكـــرن بُكـــورا واســـتحرن بســـحرة فهن ووادي الـــرَّسِّ كاليـــد فـــي الفـــم

السوبان اسم وادٍ، مفأم: جميل وضخم

ومن **نباتات الصحراء** التي ذُكرت نَجِد **الأيهقان** (الجرجير البرّي) في قول لبيد:

فَعَـــلا فُـــروعُ الأَيهُقَـــانِ وَأَطفَلَـــت بِـــــالجَهلَتَينِ ظِبائُهـــــا وَنَعامُهـــــا

الجهلتان جانبا الوادي

ومن ذلك أيضا قول امرئ القيس:

إِذَا قَامَتَـــا تَضَـــوَّعَ المِسْـــكُ مِنْهمَـــا نَسِـــيْمَ الصـــبَا جَـــاءَتْ بِرَيـــا القَرَنْفُـــلِ

نخلص إلى أن الطبيعة الصحراوية ألهبت حس الشاعر الجاهلي فراح يصور كل ما تقع عليه عينيه من مظاهر الطبيعة الصامتة من جبال وأودية وكواكب ونجوم ونباتات... والطبيعة الحية من حيوانات رافقته فكانت بالنسبة له الأنيس والصاحب في حياته.

وعليه يمكن القول: إن الشاعر ابن بيئته والادب ابن بيئته كذلك، فاحتكاك الشاعر بالبيئة أنتج لنا أدبا راقيا يحمل كل ما عاشه الجاهلي في صحرائه.